فكاهات

رواية

وفآء الجميل [1]

كان في فرنسا منذ سبعين سنة تاجر حرير يدعى مازورياي اتاح لهُ حسن الحظ ات تزوج بفتاةٍ كانت بائنتها (دوطتها) ستين الف فرنك فاضاف هذا المبلغ الى رأس مالهِ فاتسعت تجارتهُ واصبح عندهُ نحو مئة مستخدَم بين ذكور واناث وبعد ان اتت على زواجهما سنةٌ رُزق منها بنتاً سماها كلير . والظاهر ان الرجل ما تزوج بامرأتهِ الا لاجل مالها كما يفعل كثيرون في هذا الزمن فلما افترَّ لهُ ثغر النعيم شُغف بحب فتاةٍ من اللآئي يشتغلنَ في معملهِ فوقع الخصام بينهُ وبين زوجتهِ وانتهى الامر بهما الى المحاكمة فصدر الحكم بانفصالها عنهُ وبردّ بائنتها اليها فاقبلت على ابنتها تربيها حتى اذا بلغت الثامنة عشرة من العمر زوجتها بمحامٍ شابٍّ يدعى دوفرجه ببائنةٍ قدرها عشرة آلاف فرنك . وبعد سنتين من زواجها اي في سنة ١٨٥٤ توفيت الوالدة على حين بغتة وكان صهرها في الجزائر فقدم الى باريز ليستولي على تركتها فلم يجد عندها سوى اربعة آلاف فرنك ولم يعلم كيف ذهبت بقية مالها فاستولى على ما وجدهُ وباع امتعتها ولم يستبقِ منها

(١) ملخصة عن الفرنسوية بقلم خليل افندي الجاويش

الاكتساباً للصلاة كانت جلدتهُ محلاّة بالفضة فاستصحبهُ تذكاراً لزوجتهِ وقفل راجعاً الى الجزائر ولما وصل اليها وجد زوجتهُ قد وضعت بنتاً كانت آيةً في الجمال فسُرَّ بها غاية السرور وسماها ادلين

اما مازورياي ابو زوجتهِ فانهُ تزوَّج بحبيبتهِ بعد طلاقهِ بزمن قصير فولدت لهُ بنتاً رباها في مهد الدلال والترف وعندما بلغت رشدها قرنها بصيرفيٍّ يدعى كالياه تبلغ ثروتهُ نحواً من مليون فرنك واعطاها بائنةً قدرها مئتا الف فرنك . وبعد ذلك اعتزل تجارتهُ وابدل ثروتهُ باوراقٍ مالية وأخلد الى الراحة مسلّماً زمامهُ الى زوجتهِ فاتفقت مع صهرها الصيرفي واودعت عندهُ مال زوجها حتى اذا توفي لم تستطع ابنتهُ الاولى زوجة المحامي ان تطالب بشيءٍ من تركتهِ فكانت سيئة البخت من الوجهين كما كانت اختها زوجة الصيرفي ميمونة الطالع من جميع الوجوه . وزادت مصيبتها بانها فقدت زوجها بعد سنين غير مخلفٍ شيئاً فقدمت باريز ووضعت ابنتها في دير للراهبات لتتعلم فيهِ ما تستعين بهِ في مستقبل حياتها . ولما صار عمر الفتاة خمس عشرة سنة اخرجتها لانها لم تعد تستطيع ان تنفق عليها وأدركت الفتاة حقيقة حالها فعكفت على الاشتغال بما تعلمتهُ من صناعة التطريز فكانت تحصل معاشها ومعاش والدتها وسكنتا كلتاهما في بيتٍ حقير

ولما كان شهر يناير من سنة ١٨٧٢ مرضت والدة أدلين مرضاً شديداً فكانت هذه تشتغل الى ما بعد نصف الليل على نور مصباحٍ ضعيف لتدفع اجرة الطبيب وثمن الادوية فوق اجرة البيت وثمن حاجات المعيشة ولم يكن عليها من الملابس ما يدفع عنها عادية البرد القارس فما مضى عليها شهر حتى

ذهب السهر بنضارة شبابها واذبل ورد خديها واستحكمت حلقات الضيق عليها وانذرها صاحب البيت بالطرد ان لم تدفع متأخر الاجرة وكانت قد رهنت حليّها وحليّ والدتها وانفقت قيمة الرهن علاوة على كسبها فباتت في ضيقٍ لاتدري الى الخروج منهُ سبيلاً . وفي ذات ليلةٍ افاقت والدتها وهي تطرز فكاد فؤادها يذوب حناناً عليها لما رأت من نحولها واصفرارها وبعد حديثٍ بينهما ملؤهُ الحب والاشفاق اشارت الوالدة الى الابنة ان تكتب الى رجلٍ في مدينة الهفر يدعى بيرار وهو صاحب سفن عديدة وذو مالٍ كثير تستدين منهُ مئتي فرنك وقالت لها انا لا اعرف هذا الرجل ولكن اذكر ان والدهُ اوشك ان يفلس في احدى السنين لولا ان اقرضتهُ والدتي مبلغاً كبيراً فاذا كتبتِ اليهِ فربما ذكر الجميل وأمدّنا بشيءٍ نستعين بهِ في هذه الكربة . ففي الصباح بعثت اليهِ الفتاة بكتابٍ موقع عليهِ باسم والدتها واقامت تنتظر جوابهُ على احرّ من الجمر

ومن غرائب الاتفاق ان المسيو بيرار المشار اليهِ كان صديقاً حميماً للمسيو كالياه الصيرفي زوج خالة ادلين فكان يودع عندهُ زوائد مالهِ وكان الصيرفيُّ قد رُزق بنتاً سماها ارنستين وولداً سماهُ غستاف . وكان لبيرار ولد وحيد يدعى ادمون كان مقيماً بباريز منذ ستة اشهر لعهد ما نرويهِ وقد خطب لهُ والدهُ ابنة كالياه صديقهِ ووضعهُ عندهُ يتعلم فن التجارة . واتفق ان الرجل قدم باريز قُبيل ان بعثت اليهِ ادلين برسالتها ونزل في بيت صديقهِ فوصلتهُ الرسالة وهو هناك فعند ما اطلع عليها تعجب كثيراً لانهُ لم يكن يعلم ان لامرأة الصيرفي اختاً فقيرة تعيش مع ابنتها من التطريز .

وفي وقت الغدآء لحظ اهل المنزل انهُ قاق الفكر فسألوهُ فاخبرهم بامر الرسالة فاضطرب الصيرفي واصفرّ وجه امرأتهِ وقالت نعم نعرف هذه المرأة التي كتبت اليك ولكن يسوءنا ان تكون من افراد اسرتنا لانها سيئة السيرة فهي لاتستحق منك احساناً ولا قرضاً ومع ذلك فانا اتولى هذا الامر عنك فكن مستريحاً . وفي المسآء بعثت احد خدامها الى منزل اختها فاخبرها بما كان ودفع اليها ورقة مالية قيمتها خمسة وعشرون فرنكاً فقالت نحن لسنا بشحاذين فعد الى مولاتك وقل لها اننا في غنىً عن صدقتها

وبعد ايام اتى الشرطيّ وقال لهما ان صاحب البيت شكاهما الى المحكمة وطلب حجز الامتعة وبيعها لاستيفآء الاجرة المتأخرة عليهما واخراجهما من المنزل ثم كتب جريدةً باسمآء الامتعة وفي جملتها كتاب الصلاة الذي اشرنا اليهِ في صدر الكلام . فقالت ادلين وهي تبكي ان هذا الكتاب تذكار عزيز علينا فاتركهُ لنا . فقال اني مأمور بحجز كل ما اجدهُ عندكما فاذا اردتما استعادة الكتاب فما عليكما الا ان تشترياهُ يوم بيع الامتعة بالمزاد العام فان ثمنهُ لا يتجاوز خمسة فرنكات . وفي اليوم التالي انتقلت المرأتان الى غرفة حقيرة رطبة في اطراف المدينة وسارت ادلين الى سوق المزاد ومعها خمسة فرنكات لتشتري كتاب الصلاة . وكان هناك شابٌّ حلو المحيا يدور بين الحوانيت ليبتاع بعض الصور القديمة ولما همَّ بالخروج رأى أدلين تحاول الاختبآء ورآء خزانةٍ كبيرة وقد اخذ منها الانقباض والخجل فوقف يتفرّس فيها مفتوناً بجمالها الباهر وأدبها الظاهر كأَن شذا العفاف والطهر يفوح من روض حسنها ولما نودي على الكتاب برزت من مخبإِها واخذت تزيد مع الزائدين

حتى اذا اربى الثمن نصف فرنك على الخمسة التي بيدها تنهدت من كبدٍ حرَّى وسارت باكيةً حزينة . وكان الفتى واقفاً ينظر فاقترب من التاجر الذي ابتاع الكتاب واسترشد الى حانوتهِ ثم راح يعدو ورآء الفتاة وعند ما اقترب منها تلطف في محادثتها واظهر لها ما خامر فؤادهُ من الحزن لرؤيتها تبكي وقال اني عرفت سبب بكآئكِ فجئت استعطفكِ في تأدية خدمةٍ لكِ ارجو أن تكون مقبولة . فاستأنست بهِ لما رأت من ظرفهِ واحتشامهِ وسردت لهُ مسألة الكتاب وسبب بيعهِ مع امتعة بيتها وشرحت لهُ حال والدتها فاستدلَّ على البيت ففهمت مرادهُ وقالت نحن لا نرضى ان يزورنا شخصٌ غريب ولا نقبل احساناً من احد . فقال ليس هذا مقصودي ولكني اريد مساعدتكِ بوجهٍ آخر فقد فهمت منكِ ان صناعتكِ التطريز ووالدتي تقدَم باريز بعد ايام لشرآء ملابس وربما احتاجت الى اشيآء مطرَّزة فتشتريها منكِ وبهذه الوسيلة اكسبكِ شيئاً من المال مقابل عملكِ . فشكرتهُ واعطتهُ عنوان منزلها فلما قرأ اسم والدتها قال اني اعرف هذا الاسم فهل انتِ نسيبة الصيرفي المدعو كالياه . فقالت هو صهري زوج خالتي . فاطرق مفكراً ثم قال اليست والدتكِ هي التي كتبت رسالةً الى رجلٍ بالهفر يدعى بيرار تطلب منهُ ان يقرضها مئتي فرنك . فاجابت نعم وحكت لهُ قصة الرسالة وقالت ان خالتي هي التي منعت هذا القرض . وكانت الفتاة قد اقتربت من منزلها فاستأذنت في مفارقة الفتى وسارت الى والدتها وأخبرتها بأن الكتاب قد بيع لغيرها وسردت لها حديث الفتى معها . فزجرتها والدتها وقالت لها اياكِ بعد الآن أن تخاطبي الشبان في الطرقات فانهم بمثل هذا الكلام يخدعون

الفتيات وقد اخطأتِ كثيراً بارشادهِ الى منزلنا . فاستغفرتها ووعدتها ان لا تعود الى مثل ذلك في المستقبل

اما الشاب فانهُ ترك الفتاة وهو يفكر في هذه العبرة ولا بد ان يكون القارئ قد فطن الى ان هذا الشاب هو ادمون ولد بيرار وخطيب ارنستين واليك ما فعلهُ بعد الذي تقدم ذكرهُ . فانهُ سار الى حانوت الرجل الذي اشترى كتاب الصلاة وابتاعهُ منهُ بمئة فرنك لان الرجل طمع عند ما وجدهُ راغباً في شرآئهِ وظن انهُ من طبعةٍ قديمة ثم سار الى منزلهِ واخذ يقلب صفحات الكتاب فعثر فيهِ على ورقةٍ مطوية فتناولها وفتحها فاذا تاريخها سنة ١٨٤٢ فلما قرأها استهلت عيناهُ بالبكآء وقال لو عرف والدي ما في هذه الورقة لما حبس احسانهُ عمن احسن الى والدهِ وخلصهُ من ورطة الافلاس . وفي اليوم التالي ذهب الى احد مجلدي الكتب واوصاهُ ان يغير جلدة الكتاب وبعد ثلاثة ايام بعث بهِ الى والدة ادلين مع رسالة يُلمع فيها الى التقآئهِ بالفتاة ويقول انهُ لا يريد ان يعرّفهما بنفسهِ ولكنهُ يسعى لهما بمنفعةٍ جزيلة

وكانت والدة ادمون قد أتت الى باريز فانزلها عندهُ ومنعها من زيارة آل خطيبتهِ واخبرها بسبب انحرافهِ عنهم وقال انهُ يريد ان يفسخ خطبتهُ الاولى ويتزوج بالفتاة الفقيرة التي مال اليها . فأخذت تنصحهُ بالعدول عن هذا الرأي فازداد اصراراً عليهِ وقال لها سوف تعلمين من هي خطيبتي الجديدة وما هي اخلاقها وصفاتها اما الآن فالذي اطلبهُ منكِ هو ان تذهبي الى منزلها وتوصيها بعمل ما تريدين من الثياب المطرّزة وتؤدّين اليها الاجرة

مقدَّماً وتزعمين انكِ آتية من لدن مدام مونتيل التي تشتغل الفتاة لحسابها. فقالت وكيف عرفت هذه الامور كلها وأنت لم ترَ الفتاة الا مرةً واحدة . فقال اني اكتريت غرفةً مقابل غرفتها وفي كل يوم اراها من ورآء الستار واتنسم اخبارها من الجيران وقد علمت أنها اطهر بنتٍ في باريز . فلما رأت والدتهُ شدة ميلهِ اليها انقادت لرأيهِ وسارت في اليوم التالي الى منزل المرأتين وهي لابسة ملابس بسيطة فلما وقعت عينها على أدلين عذرت ولدها على حبّهِ ثم عرضت طلبها واختارت ما حلا لها من أشكال التطريز التي أرتها الفتاة اياها وكانت اجرة ما كلفتها عملهُ الف فرنك فدفعت اليها نصف المبلغ سلفاً ثم قالت واني ارجو ان تسرعي في انجاز العمل لاني لست من اهل باريز بل انا آتية لاصرف فيها بضعة ايام . فارتعشت ادلين وادركت والدتها مغزى العبارة فأرسلت ابنتها الى السوق ولما خلت بالسيدة سألتها هل لكِ اولاد . فأجابتها لي ولد وحيد هو اليوم مقيم بباريز . فقالت او ليس ولدكِ هو الذي ارسلكِ الينا . فقالت نعم لانهُ رثى لحالكما وحملتهُ المروءة على مساعدتكما . فقالت بل هو قد تعشق ابنتي واكترى غرفةً امام منزلنا وقد رأيتهُ مراراً يطلّ من النافذة وعند ما يقع بصر ابنتي عليهِ يحمرّ وجهها وتضطرب حواسها فالاليق بكِ وبي اما ان نمنع هذا الامر واما ان نبتّ رأياً ملائماً لنا جميعاً . فقالت السيدة لقد رأيت منكِ ومن ابنتكِ فوق ما سمعت وسوف افعل ما يلهمني الله . ثم ودعتها وانصرفت وقصت على ولدها كل ما سمعتهُ ورأتهُ وقالت لهُ يظهر ان الفتاة قد شغفت بك كما شغفت بها ولكن بقي ان يرضى والدك بأن تترك خطيبتك وتتزوج بمن احببتها . فقال

ليس اسهل عليَّ من اقناعهِ بذلك ودخل الى غرفتهِ وعاد اليها بالورقة التي وجدها في الكتاب فدهشت لدى قرآءتها . فقال وقد علمتُ أيضاً ان حماة المسيو كالياه قد اتفقت معهُ على حرمان والدة ادلين من ميراث والدها بطرق لا اذكرها الا امام والدي . ثم ذهب الفتى واكترى منزلاً في افضل احيآء باريز وفرشهُ بأحسن الرياش وارسل والدتهُ الى غرفة خطيبتهِ فأتت بها وبوالدتها الى المنزل الجديد بحجة ان بيتهما رطب مضرٌّ بالصحة فعند ما وصلتا الى المنزل بُهرت ابصارهما بما رأتا فيهِ من الرياش الفاخر ومعدات الرفاهية وعينت والدة ادمون لكلٍّ منهما غرفتين . وبعد قليل دعتهما الى تناول الغدآء وقبل ان يؤتى بالطعام قالت لنصبر قليلاً فانني انتظر مدعوًّا ثالثاً وما قالت هذه العبارة حتى انفتح باب الردهة ودخل ادمون فتناولت والدتهُ يدهُ وقدمتهُ الى والدة ادلين وقالت لها هذا ولدي ايتها السيدة وخطيب ابنتكِ من بعد رضاكِ . فتأثرت ادلين من هذا المشهد الغير المنتظر واستلقت على كرسيها وقد اوشكت ان يغمى عليها واخذت والدتها تبكي وتقول ما الذي اراهُ يا الهي أفي حلمٍ انا ام في يقظة . فقالت مدام بيرار ان اسرتنا عليها لوالدتكِ حقوقٌ عظيمة وها نحن نفي دين المعروف والمودة وولدي قد احبَّ ابنتكِ فهو يرغب في اتخاذها زوجةً لهُ . وكان ادمون قد جلس الى جانب الفتاة وجعل يحادثها كانها تعرفهُ منذ سنين واخبرها في اثنآء الحديث بامر الكتاب وبما وجدهُ فيهِ من الكتابة فكان منظر الجماعة من ألطف ما تتصوَّرهُ العين وتحنو عليهِ العواطف

ولما طال غياب ادمون عن بيت خطيبتهِ انفذ والدها جاسوساً يستطلع

طلْع حالهِ فعاد يخبرهُ بما رآهُ وسمعهُ فاستشاط غيظاً وبعث يخبر صديقهُ والد الفتى بانحراف ولدهِ عن جادّة الامانة وحسن السلوك . وفي ذلك المسآء كانت والدتهُ مدعوّةً الى العشآء في بيت الصيرفيّ فاستصحبت ولدها ولكن الجماعة لم يفاتحوها بالامر غير ان ارنستين اخذت بيد ادمون وسارت بهِ الى الحديقة واظهرت لهُ انها عرفت سرّهُ من اولهِ الى آخرهِ واخذت تلومهُ وتعنفهُ فاعترف لها بحقيقة الحال واخبرها ان التي احبها ليست باجمل منها ولكن دين المعروف قضى عليهِ ان يختارها زوجةً لهُ دونها على انها ليست غريبةً عنها لانها بنت خالتها . ثم اعطاها عنوان المنزل الذي اسكنها فيهِ مع والدتها واخبرتهُ هي بان والدها كتب يشكوهُ الى والدهِ . وبعد ثلاثة ايام اتى المسيو بيرار الى باريز ونزل ببيت صديقهِ ولما جلسوا للغدآء سردوا لهُ مسئلة ابنهِ وتعاون الرجل وامرأتهُ وحماتهُ على الطعن في عرض ادلين وتقبيح سيرتها وسيرة والدتها . وبينما هم في الحديث اغتنمت ارنستين الفرصة وركبت عربةً وسارت الى منزل ادمون بشارع لكسمبور ودفعت الى البواب رسالةً برسم مادام بيرار وعادت قاصدةً منزل ادلين وكان ادمون هناك فدخلت على الفتاة ووالدتها بحجة انها تريد ان تتعلم التطريز عندهما ولم تعرّفهما بنفسها فاتسع لها مجال الكلام وما زالت تستطرد من حديثٍ الى آخر حتى لم يبقَ للكتمان موضع فنهضت وألقت بنفسها بين يدي ادلين وقالت انا بنت خالتكِ ارنستين فضمتها ادلين الى صدرها وتعانقتا كلتاهما تعانق الاحبآء

وفي تلك اللحظة وفد غستاف شقيق ارنستين فقابلهُ ادمون بمنتهى

الحفاوة والبشاشة فقال انا آتٍ لأدعوك الى المبارزة لانك نقضت عهدك وثلمت شرف اختي بفسخ خطبتك وتعشقك ابنة وجدتها في الشارع . فلاطفهُ ادمون وبالغ في تسكين غضبهِ فما ازداد غستاف الاّ سبّاً وشتماً فامسكهُ ادمون بخناقهِ وجذبهُ بعنف وللحال انفتح الباب وظهرت ارنستين فلما رأى شقيقتهُ تراجع دهشاً وقال من اتى بكِ الى هنا . ثم اتت ادلين ووالدتها فتقدمت ارنستين وقالت لشقيقها ها خالتك وابنة خالتك فاستغفرهما عما فعلت فصافحهما خجلاً وطلب الصفح منهما ومن ادمون . وبعد لحظةٍ دخل والد ادمون ثم دخلت والدتهُ فتناولت الورقة التي وجدها ابنها في كتاب الصلاة ودفعتها الى زوجها وقالت لهُ اقرأ رسالة والدتك فقرأها فاذا فيها أن مادام مازورياي اقرضت والدهُ ستين الف فرنك وخلصتهُ من الافلاس والعار وان والدهُ لم يردّ المال بل اكتفى بدفع فائدتهِ واشترط ان يعطيها شيئاً من ارباح محلهِ . فلما قرأ ذلك قال فنصف ثروتي اذاً تخص ورثة مادام مازورياي . فقالت زوجتهُ وها ان وارثتيهِ امامك فانا اقدم لك مادام دوفرجه وابنتها السيدة ادلين وهي التي احبها ولدك وهو يريد ان يقترن بها فادفع انت ما عليك من المال ودع ولدك يفي دين المعروف ويقوم بحق الجميل

وبعد شهر زُفّت ادلين الى ادمون في مدينة الهفر وعاش مع امرأتهِ ووالديهِ على اتمّ ما يشتهي من الهنآء والمسرة وكان كل من سمع بقصتهِ يقول هكذا يكون الوفآء وهكذا تكون العواطف والاخلاق